المصدر : عكـــــــــاظ
التاريخ : ١١ ذو القعـــدة ١٤٠١هـ

الإسلام في آسيا الوسطى أكبر تحد للسوفييت

لقد بلغ انتشار الاسلام في العالم الذروة في منتصف القرن الثالث عشر حسب التقويم الميلادي عندما نجح في ادخال الاغلبية الكبرى من العالم الناطق باللغة العربية والإيرانية والتركية الى صفوفه . واليوم يمارس العالم العربي كله رغم انه مقسم الى وحدات صغيرة درجة اكبر من الاستقلال الذاتي السياسي والفرصه لاتباع تعاليم النبي الكريم وعلى خلاف العرب ، فان الشعب التركي والايراني لايزال مهددا بواسطة الحدود الآسيويـة ـ السوفيتية . ويستطيع المرء ، على اساس ما اذا كان يعتبر افغانستان خاضعة للسيطرة السوفيتية بصورة دائمة ام لا ، ان يقول ان الشطر الاكبر من الشعب الايراني ـ التركي ، يعيش وسط مناورات من الاتحاد السوفيتي حيـث العقيـدة الدينيـة ممنوعـة وفقـا للايديولوجيه الاساسية .

وتكشف الاحصاءات وحدها اهمية فهم الاستجابة السوفيتيه للاسلام حسبما هو معروف تاريخيا ، وعلى ضوء النهضة الحالية للايمان . ويبلغ عدد سكان تركيا وايران معا حوالى ٧٠ مليون نسمة و ٩٥ ٪ منهم على الاقل ثقافيا او روحيا مسلمون . ويمثل هذا العدد تقريبا ٤٠ مليونا من الناطقين باللغة التركية (اتـراك ازبـرى وتركمان) ، و٣٠ مليونا من الناطقين باللغة الهندية ـ الآرية (الفرس والاكراد والبلوتش) . ومع ذلك يوجد في الاتحاد السوفيتي وافغانستان (باستثنـاء المسلمـين الاتراك والايرانيين في الصين الشيعية وباكستان) اكثر من ٣٨ مليونا من الشعوب التركية و٢٦ مليونا من الناطقين بالايرانية . لذلك يمكن القول انه يوجد في الاتحاد السوفيتي حوالى نصف مسلمي العالـم ذوى الخلفية التركية .

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

فاذا نجح الاتحاد السوفيتى فى الاحتفاظ بموضع قدمه فى افغانستان ، فسوف يصبح حوالى نصف المسلمين الناطقين بالفارسية فى العالم معزولين عن بقية ابناء جلدتهم ودينهم وهكذا فانه فى انحاء الاقليم التركى ـ الايرانى لامفر من الخطر الناجم عن قرب الايديولوجية الشيوعية والنظام السوفيتى • وهناك ايضا التحدى للعالم الاسلامى ككل من دولة ايديولوجية يمكن اعتبارها خامس دولة اسلامية فى العالم •

الاستعمار الجديد ، عدد السكان والانسان السوفيتى

تجعل الظروف فى داخل حدود السوفيت من الاهمية القصوى ان ندرك طبيعة المجابهة بين الايديولوجية والاسلام • وبغض النظر عن نجاح السوفيت فى تحويل افغانستان الى تابع دائم ، فقد اصبح جميع المسلمين الاخرين فى الاتحاد السوفيتى مندمجين فى الدولة كشىء من مخلفات الاستعمار القيصرى • وكانت المقاومة المحلية للجيوش القيصرية موجودة فى كل خطوة بالرغم من ان التاريخ الرجعى السوفيتى حاول ان يصور الغزو القيصرى على انه اتحاد « اختيارى »

وعلى خلاف ابناء جورجيا وارمينيا الذين اعتبروا الامبراطورية الروسية « المسيحية » مكانا للالتجاء السياسى ، فان المسلمين من جبال القوقاز الوعرة (الداغستان) الى سفوح جبال النانى قاوموا بطريقة عشوائية بطولية متناثرة الجيوش القيصرية المسلحة

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

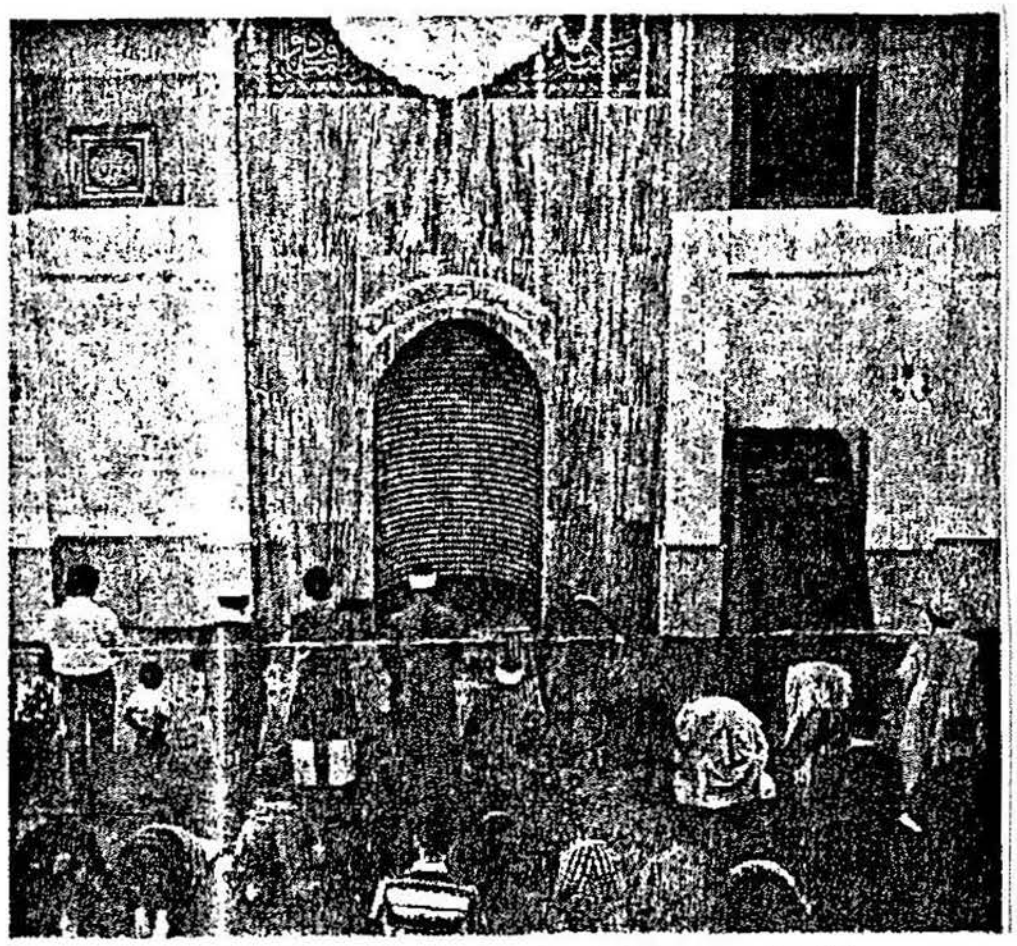

والمنظمة · وقد قتل المسلمون بصورة جماعية فى اوج تيبى عام ١٨٨٥ واحيلوا الى التقاعد او جرى اغراءهم بالمال فى بخارى او جرى القضاء على زعمائهم فى كوكاند وخيفه وغيرهما ·

وتحت وطاة الضغط من السكان المزارعين السلاف (ومعظمهم روس) فى الامبراطورية الروسية حدثت الهجرة الى المنطقة المسلمة فى اعقاب الغزو وفى بعض الاحيان كانت تفرض الغزو · وعشية الحرب العالمية الاولى تم اخضاع المسلمين ، فى العهد القيصرى ، بواسطة القوة الاستعمارية الغربية وفى السنوات التى اعقب الحرب العالمية الثانية حصلت جميع المناطق المسلمة فى العالم على الاستقلال باستثناء تلك التى فى الامبراطورية القيصرية التى ادمجت فى الاتحاد السوفيتى فى اعقاب حرب اهلية · ولايزال ثلثا المسلمين السوفيت يعيشون اليوم فى ست جمهوريات سوفيتية فى حين حرم التتار والمسيحيين من أن يكون لهم وجود منفصل ، ولايزال اخرون يعيشون فى الجمهورية الروسية حيث يتعرضون لعملية تذويب اكبر من تلك التى يتعرض لها اصحاب الديانات الاخرى فى انحاء الاتحاد السوفيتى ·

وطوال سنوات طويلة وخاصة فى الفترة من ١٩٣٢ ـ ١٩٥٥ كان المسلمون السوفيت معزولين عن بقية العالم مثلما كان العالم الشيوعى بصورة عامة · وقد بدات المعلومات التى تتسرب ببطء بكميات محددة تخضع لرقابة دولة سوفيتية شديدة التوتر · وبالرغم من تزايد المعلومات عن الاتحاد السوفيتى عموما بصورة كبيرة فان وصول العالم الى المسلمين السوفيت لايزال مقيدا ·

ولقد كانت المعلومات سهلة الوصول هى السكانية التى تستند على معلومات احصائية وخاصة من الاحصاءات السوفيتيه الثلاثة الاخيرة ١٩٥٩ ، ١٩٧٠ ،

www.ethraadl.com

١٩٧٩ • ولقد اسفرت المقارنه الدقيقة لهذه المواد عن الموضوع الواسع التالى والذى اثار قلق موسكو وسرور المسلمين السوفيت والمهتمين ببقائهم •

اولا • ان معدل المواليد بين السكان المسلمين السوفيت اكبر من بقية سكان الاتحاد السوفيتى وخاصة اذا قورن ذلك بالشعب السلافى •

ثانيا • الذوبان ، اذا حكمنا عليه بعوامل مثل الزواج المشترك وتغيير اللغة الاولى والتفرق خارج المناطق الاسلامية التقليدية لم يكن ناجحا •

ثالثا • ان عدم الذوبان (الاندماج) ومعدل النمو المرتفع يساهمان فى حدوث التصدع داخل الاتحاد السوفيتى بعد عام ٢٠٠٠ عندما يصبح من الممكن ان يشكل المسلمون ٣٥٪ من مجموع سكان الاتحاد السوفيتى ، ونتيجة لصغر السن ، يمكنهم ان يمثلوا

ولقد دارت محاولات السوفيت لتذويب جميع الجنسيات المختلفة فى البلاد وخاصة المسلمين ، حول فكرة الانسان السوفيتى • ومثلما قال ليونيد بريجنيف فان الانسان السوفيتى هو شخص اشتراكى جبل على محور روسى • اى ان ثقافة الانسان السوفيتى الجديد ستقوم على لغة روسية • وسوف تشكل العادات وانماط الحياة وقيم الانسان السوفيتى حول انماص اشتراكية روسية لاتعيقها القيم السلالية التقليدية او الدينية • والمثال البيانى الذى يضرب هنا هو حفل زواج يتضمن بعد تسجيله شرعيا ، يتضمن اكاليل الزهور من قبل العروسين على ضريح احد ابطال الحرب السوفيت ولا تمثل هذه العادة القبيحة اضفاء الطابع الدنيوى على مايعتبر فى معظم المجتمعات حفلا دينيا فحسب ، بل تضيف عادة مبتدعة لسد ثغرة نشات نتيجة ازالة العادة المحلية •

ولايزال الانسان السوفيتى كنموذج امرا محيرا لموسكو وخاصة بين المسلمين السوفيت الذين تختلف عاداتهم وتقاليدهم اختلافا جذريا عن الروس الذين يعيشون فى لينينجراد او حتى طشقند

وادى تجنب اللغة والثقافة المحليتين لصالح الروس الى رد فعل داخل المناطق الاسلامية والذى يستند اما على شخصية ثقافية مسلمة سلالية • اى اننى من الاوزبك فلذلك سوف يسمى ابنى فاضل (اسم مسلم) او على شخصية اسلامية روحية بدرجة اكبر وترتبط هذه الاخيرة بفكرة ان الاسلام لايمكن تهديده بايدلوجية خارجية ولايحتاج الى ان يكيف نفسه مع الشيوعية • الاسلام الرسمى وغير الرسمى فى الاتحاد السوفيتى

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

نظرا لان الاتحاد السوفيتي يحاول ان يجعل السياسة الخارجية تستفيد من العدد الكبير من السكان المسلمين في البلاد فقد برز البنيان الاسلامي الرسمي في الاتحاد السوفيتي بصورة اكثر تفصيلا · ويتالف الاسلام الرسمي او القانوني في الاتحاد السوفيتي من اربع هيئات اقليمية او مديريات دينية · روسيا الاوربية وسيبريا ، شمال القوقاز وداغستان ، منطقة القوقاز ، اسيا الوسطى وكازاخستان · وتبقى المناطق الاخيرة هي الاكثر اهمية ونشاطا ، خاصة لانها تعمل لاحباط التحدي للنظام السوفيتي من الاسلام الصاعد في العالم الاسلامي في الشرق والمناطق الاخرى ·

واما الاسلام غير الرسمي فهو يمثل موضوعا اكثر اثارة للحيرة لان مصادر المعلومات غير متوفرة للاجانب ، حتى الزوار من البلاد الاسلامية ، الذين يجري اختيارهم غالبا لكي يكونوا متعاطفين مع القضية السوفيتيه او ان يكونوا خاضعين للرقابة الشديده بحيث لايستطيعون ادراك المعلومات ويشير الاسلام غير الرسمي لهؤلاء الاشخاص والجماعات والانشطة التي تعمل خارج نطاق الزعماء الدينيين المسموح لهم بممارسة النشاط والمسجلين وتشير الصحف السوفيتية بضيق الى امثلة عن رجال الدين غير الرسميين الذين يكسبون معيشتهم من رسوم يجمعونها لقاء القيام بانشطة في حفلات الزواج والجنائز والختان

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

ودخول احد الشباب فى الخدمة العسكرية ويستطيع الزعماء الدينيون القيام ببعض هذه الوظائف وهم يقومون بها فعلا ومع ذلك فان ارتفاع درجات الزعماء غير الرسميين قد يشير الى ان عدد رجال الدين الرسميين غير كاف كما يشير الى اصرار الجماعات التى ترفض ان تصبح جزءا من البنيان المحدد والمقيد الرسمى الغريب عن الاسلام الصحيح ٠

وعلى مستوى الجماعة وبعيدا عن يد البيروقراطية فقد يعمل الاسلام الرسمى وغير الرسمى على اتفاق تام معا وعلى سبيل المثال عند جباية المال لاصلاح او بناء مسجد او حتى مدرسة ، فان رجل الدين غير الرسمى يحتاج لمساعدة من القيادة المعترف بها رسميا للحصول على الاذن اللازم لكى تعمل هذه المؤسسة وقد لوحظ اثار هذا النشاط فى وسط اسيا ٠

تدور السياسة الاسلامية السوفيتية حول المؤسسة الاسلامية الرسمية ونشاطاتها وهذه الاخيرة تتالف من اصدار النشرات فى الداخل وخاصة باللغات الاجنبية مثل العربية والفرنسية والانجليزية وادارة المدرستين الوحيدتين العاملتين فى الاتحاد السوفيتى ونظرا لان قضية نهضة الاسلام قد اصبحت ذات اثر سياسى ، فان نشاط المؤسسة المسلمة السوفيتية قد تضاعف ٠ ففى اعقاب الحرب بين العرب واسرائيل عام ١٩٦٧ وعندما القى السوفييت تاييدهم وراء القضية العربية ، ظهرت الاعداد الاولى من مجلة مسلمى الشرق السوفيتى ٠ ومنذ ذلك الحين صدرت عدة طبعات من القران الكريم وكذلك مجموعات من الفتاوى وبعض الاحاديث النبوية وطشقند هى مركز هذا النشاط من اصدار النشرات وكذلك فانها تتولى التدريب الثانوى لجميع رجال الدين المسلمين لرسميين (ويتم تدريس المبتدئين فى المدرسة العربية فى خارى – وهى مرحلة تتبع الثانوية ويتم تدريس هؤلاء لشبان اللغة العربية الفصحى وكثير مايقوم هؤلاء اعمال الترجمة لرجال الدين الاسلامى الزائرين ٠ وهناك

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

فرصة امام المتدربين المجتهدين فى اتمام دراستهم العليا فى المؤسسات الاسلامية المعروفه من دمشق الى المغرب ٠

ورغم الشروط المقيدة التى يعمل الاسلام الرسمى فى ظلها ، فان معدل نشاطه الحالى يمثل شيئا بعيدا عن السنوات من ١٩٢٨ ــ ١٩٤١م عندما تعرض رجال الدين المسلمين شانهم شان غيرهم من العناصر الدينية الاخرى ، للمطارده باعتبارهم معادين للسوفيت ٠ وقد ترجم الاهتمام الكبير بالاسلام كعامل سياسى فى مناطق مجاورة للاتحاد السوفيتى نفسه الى فرصة اكبر للمسلمين السوفيت ٠ ويمثل الاسلام الرسمى وغير الرسمى والجماعات الصوفيه والاسلام الثقافى البسيط الطبقات المختلفة للاسلام فى الاتحاد السوفيتى ٠

وفى الوقت الذى يعمل فيه الاسلام الرسمى داخل النظام السوفيتى ولكن بصورة غير مستقلة الا ان السلطات السوفيتية لاتستطيع ان تتجاهله دون اية عواقب وهناك شىء مماثل يوجد فى علاقة هذا الدين بموسكو وعلاقة نظام الجنسية وموسكو ٠ ولقد اقامت الدولة السوفيتية هذه المجموعات من المؤسسات والبيروقراطيات لاسباب داخلية عملية ٠ ومع ذلك فقط تطور النظامان الى بنيات تعزز الولاء بين المسلمين السوفييت ٠

تحدى الاسلام الصاعد

وفى محاولة مواجهة التحدى الذى تمثله ظاهرة مثل الثورة الاسلامية فى ايران حاول الاتحاد السوفيتى الاستفادة من اثنتين من مؤسساته الرئيسيتين اللتين اقيمتا خلال السنوات الستين الماضية للسيطرة على المسلمين والسكان الآخرين : وهما نظام الجنسية والجهاز الاسلامى الرسمى ٠

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

ومن الناحية الاساسية يدعو نظام الجنسيه الى تقسيم السكان فى دولة متعددة الاجناس حسب الخطوط اللغوية والسلالية • وبهذه الطريقة فان اية شخصية تتعدى القوميات مثل الاسلامية او التركية الشاملة او القومية فانها تقع ضحية التقسيمات الصغيرة الفرعية • ولقد حاول الاتحاد السوفيتى فى علاقته مع ايران منذ اوائل هذه العلاقة ، ان يستغل هذا النظام بالنسبة للاكراد والازارى وحتى التركمان الايرانيين ولقد فشلت تلك المحاولة الاولية فى ٤٥ ـ ١٩٤٦ ••

وفى اعقاب سقوط الشاه ، شعر الايرانيون ان موسكو حاولت مرة اخرى استغلال هذا النظام لممارسة الضغط على ايران وقد حدث ذلك بطريقتين : اولا ، تقول ايران ان الاتحاد السوفيتى زود الثوار الاكراد فى غرب ايران بالسلاح ، وثانيا ، ان حزب توده المتحدث بلسان الاتحاد السوفيتى فى ايران ايد تقسيم ايران الى مناطق بحسب اللغات والسلالات • وقد عزز من هذا الراى الايرانى قيام الجماعات الايرانية اليسارية بمساعدة تحدى التركمان القصير للسلطة المركزية •

ولا شك ان وضع سياسة للجنسية حسب تلك المعمول بها فى الاتحاد السوفيتى سيكون خطوة اولى فى التفتت الاقليمى للبلاد التى يحفظ تماسكها الان بقايا القومية الايرانية والحماس الدينى وعلى خلاف موسكو فان طهران ليست قوية او مستقرة بما يكفى لمواجهة تطور نصف اراضيها الى اقاليم متناحرة • وعلى خلاف النشاط الاسلامى الايرانى الذى يحتوى على عناصر قوية لايديولوجية سياسية فان قضية المقاومة الافغانية وعواقبها للاتحاد السوفيتى اقل تحديدا وفى حين ان المقاومة الجماعية تبدو وكانها مزيج من العناصر القومية والمعاداة لروسيا ، والعناصر الاسلامية الا انه يبدو ان معظم القيادة ، سواء كانت حقيقية او شخصية ، تفتقر الى برنامج اولى لافغانستان بعد تحررها •

وتحاول موسكو ان تصور جميع الحركات الاسلامية التى تحاول العودة الى القران الكريم للاسترشاد به السياسة المعاصرة والاقتصاد الحديث والسلوك الاجتماعى بنفس صورة الهيئة الاسلامية التى واجهت غزو الجيش الاحمر لتركستان والاقاليم المجاورة لبحر قزوين اثناء الحرب الاهلية الروسية • ومن اجل ذلك جرى ربط الحركة الافغانية مباشرة بحركة باسماخى فى وسط آسيا (١٩١٨ ـ ١٩٣٢) وعلاوة على ذلك كشف هذا الموقف الروسى عن نفسه فى التكتيكات العسكرية والدعائية والبيروقراطية التى تشبه تلك التى استخدمت ابان الصراع الروسى ـ الاسلامى فى اسيا الوسطى • ومن الامثلة على هذه الاساليب مايسمى بتحرير المراة ، الهجرة الواسعة النطاق للفنيين الروس والمسلمين السوفييت فى مجالات تمتد من التخطيط العسكرى الى التطور الثقافى

وربما انه من الانصاف القول ان افغانستان هى مكان المواجهة بين العالم الاسلامى والنظام الشيوعى الروسى فى مجالين : العسكرى ـ والاهم من ذلك على المدى البعيد ـ الايديولوجى • ودرجة التاييد ـ العسكرى والادبى والايديولوجى • من الوطن الاسلامى الى الافغان ، فقد تكون مؤشرا للشيوعية الروسية عن كيفية قدرة الاسلام الصاعد على مواجهة التحدى الذى يمكن ان تواجهه ، من العسكريين والذين يتحلون بالاخلاق التى تواجه بايديولوجية معارضة •

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية